المبحث الثالث

إحداث أصول تشريعية جديدة

تتفق كلمة العلماء على حجية [1] الأصول الشرعية الأساسية الثلاثة ، وهي : الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، وكذلك القياس في قول جمهور العلماء[2]. واختلفوا في حجية جملة من الأصول ، كالاستحسان ، والاستصلاح (العمل بالمصلحة المرسلة) والاستصحاب ، وقول الصحابي وشرع من قبلنا ، وإجماع أهل المدينة . وكل من القائلين بحجية أصل من هذه الأصول ، أو القائلين بعدم حجيته لهم أدلة شرعية وعقلية ، وهذه الأصول هي دلائل لظهور الحكم الشرعي ، يقول الآمدي : [3] « وكل واحد من هذه الأنواع [يعني الكتاب والسنة والإجماع والقياس والاستدلال (الاستصحاب)] فهو دليل لظهور الحكم الشرعي عندنا به »[4]. وأصل هذه الأدلة كلها إنما هو الكتاب ، يقول الإمام الغزالي : «واعلم أننا إذا حققنا النظر بَانَ أنّ أصل الأحكام واحد وهو قول الله تعالى »[5]. ويقول الآمدي : « والأصل فيها [أي الأصول الخمسة] إنما هو الكتاب . لأنه راجع إلى قول الله تعالى المشرع للأحكام ، والسنة مخبرة عن قول الله تعالى وحكمه . وأما مستند الإجماع فراجعٌ إليهما . وأما القياس والاستدلال فحاصله يرجع إلى التمسك بمعقول النص أو الإجماع ، فالنص والإجماع أصل ، والقياس والاستدلال فرع تابع لهما »[6].

---

(١) الحجية «أي الإظهار والكشف والدلالة ، ويلزم من هذا وجوب العمل بالمدلول حيث إنه حكم الله) ينظر ، عبدالغني عبدالخالق ، حجية السنة ص ٢٤٤ .

(٢) ينظر جملة كتب الأصول ، وينظر ما يلي ، الشاطبي ، الموافقات ج ٢ ص ٣٤٥ ، وابن قدامة ، روضة الناظر ص٦١ ، فواتح الرحموت ج ٢ ص ٢ والبدخشي ، مناهج العقول ، والأسنوي ، نهاية السول ، وكلاهما شرح لمنهاج الوصول للبيضاوي ج١ ص ٣٩ .

(٣) هو علي بن محمد بن سالم التغلبي ، أبو الحسن ، سيف الدين الآمدي ، أصولي ، باحث ، أصله من آمد ولد بها وتعلم في بغداد والشام ، وانتقل إلى القاهرة له نحو عشرين مؤلفاً منها : الإحكام في أصول الأحكام توفي سنة ٦٣١هـ ، الأعلام ج ٤ ص ٣٣٢ .

(٤) أحكام الأحكام ج ١ ص ٢٢٧ .

(٥) المستصفى ج ١ ص ١٠٠ ، وينظر ابن قدامة ، روضة الناظر ص ٦١ .

(٦) إحكام الأحكام ج ١ ص ٢٢٧ .

ولقد وقعت جماعة شكري مصطفى في ضرب من الغلو لم تُسبق إليه - فيما أعلم- ، إذ أحدثت أصولاً شرعية جديدة. يقول شكري مصطفى في كتاب له بعنوان الحجيات : «ما هي الأوعية التي صب الله لنا فيها الهدى ؟ لا شك أن الأوعية تنحصر فيما خلقه الله وأمر به ، هل هناك شيء آخر يتصور أن يكون فيه علم؟ . . . كلا . . . لا يوجد علم خارج نطاق الخلق ، كما أنه لا يوجد خلق بغير علم ، إذن فكل خلق متصل بعلم ، وكل علم متصل بخلق ، فلا يمكن تعلم شيء غير موجود ، وغير مخلوق ، وهناك انتباه [هكذا] يجب الالتفات إليه :

أن العلم المطلق الذي نقصده هنا ، هو فيمايتصل بعبادة الله سبحانه وتعالى، أي أن العلم الذي نعبد الله به ، حتى وإن نسبناه إلى الله تعالى (علم الله) فأيضاً هذا مقصدنا منه ، ولا نعني به علم الله بنفسه .

سؤال : ولكن هل يمكننا تجزئة الخلق والأمر إلى ما هو أبسط من ذلك ؟ زيادة في الوضوح وزيادة في البيان ، أما عن الخلق فيتخلص في السماوات والأرض (طبعا بما فيها وبينهما) وكذلك في الإنسان حيث إنه صاحب الشأن فيمانحن بصدده وقطعاً لا يجوز من مخلوقات غير هذه التي حصرناها : السماوات والأرض وما بينهما وما فيهما ، والإنسان وما بث الله فيه من فطرة .

أما عن الأمر ، فإلى جانب الأمر المتصل أو الموجود فيما خلقه الله ، فلا يبقى إلا التشريع والهدى الذي أنزل علينا وهو الذكر ألا وهو القرآن والسنة .

وعليه فتصبح المصادر التي فيها الهدى هي :

١ - السموات والأرض وما فيهما من أمر .

٢ - الإنسان وما فيه من فطرة سليمة .

٣- القرآن .

٤ - السنة أو الحكمة .

والميزة في هذه الأوعية أنها كلها حق وما دونها باطل والنصوص الصحيحة قرآنية وغير قرآنية تشهد بذلك »[1].

---

(١) الحجيات ص ٣ - ٤ .

ويستدل لذلك بنصوص عديدة. ففيما يتعلق بالمصدر الأول السماوات والأرض وما فيهما من أمر يستدل بما يلي :

١ - قول الله تبارك وتعالى : « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق »[١].

٢ - قوله تعالى : «إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين وفي خلقكم وما يبث من دآبة آيات لقوم يوقنون »[٢].

٣ - قوله تعالى : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين »[٣].

٤ - قوله تعالى : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا »[٤].

٥ - قوله تعالى : « ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى »[٥].

٦ - قوله تعالى : « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار »[٦].

وهناك أدلة أخرى كلها تحمل نفس المضمون. وبالجملة فهم يستدلون بالآيات التي ورد فيها الأمر بالاعتبار والتدبر في خلق السموات والأرض وما بينهما[٧].

أما عن المصدر الثاني وهو الإنسان وما أودع الله فيه من فطره فيستدلون بما يلي :

١ - قوله تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون »[٨].

---

(١) سورة الحجر آية ٨٥.

(٢) سورة الجاثية ٣، ٤.

(٣) سورة الأنبياء آية ١٦.

(٤) سورة (ص) آية ٢٧.

(٥) سورة الأحقاف آية ٣.

(٦) سورة آل عمران آية ١٩٠ - ١٩١.

(٧) ينظر شكري مصطفى، الحجيات ص ٤.

(٨) سورة الروم آية ٣٠.

٢- قوله تعالى : «بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره »[١].

٣- قولـه تعالى : « يا أيها الإنسان مـا غرك بربك الكريم الـذي خلقك فسواك فعدلك في أيّ صورة ما شاء ركّبك »[٢].

٤- قوله تعالى : «ألم نجعل له عينين ، ولساناً وشفتين »[٣].

٥- قوله تعالى : «لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم»[٤].

٦- قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة»[٥].

كما يستدلـون بنصوص أخرى ، تـدل على كمال خلق الإنسان ، ونفخ اللـه عز وجل فيـه من روحه . ويقـول في ختام عـرض هذه الأدلة : « لا يمكـن أن يهتدي الإنسـان ؛ إذا فصل بين تلك المصادر الأربعـة المعنية أو فـرق بينها ، فـالهدى فيهم [هكذا] جميعـاً كشيء واحد مجمل بل يكفـر من فرق بعضهـا عن بعض أو استغنى عن بعضهـا ببعض إذ أنها لا تعـارض بينهـا قـال تعـالى : (وفي الأرض آيـات للمـوقنين ، وفي أنفسكم أفلا تبصرون ، وفي السماء رزقكم ومـا تـوعدون فـورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون) »[٦][٧].

المناقشة والرد :

بهذا القول الـذي أحدثوا به أصـولاً تشريعية جديدة تخرق هـذه الجماعة إجماع

---

(١) سورة القيامة آية ١٤ - ١٥

(٢) سورة الانفطار آية ٦ - ٨

(٣) سورة البلد آية ٨ - ٩

(٤) سورة التين آية ٤

(٥) رواه البخاري (٨/ ١٥٣) كتاب القدر ، باب الله أعلم بما كانوا عاملين ، ومسلم(٤/ ٢٠٤٨) كتاب القدر : باب معنى كل مـولود يـولد على الفطـرة . وأبـو داود (٤٧١٤) كتاب السـنة : باب في ذراري المشركين من طـرق من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٦) سورة الذاريات آية ٢٠ - ٢١ .

(٧) شكري مصطفى ، الحجيات ، ص ٥ .

الأمة على تقديم الكتاب والسنة على ما سواهما ، وعلى حصر الأصول التشريعية فيماسبق بيانه صدر هذا المبحث - سواء المتفق على حجيتها والمختلف فيها - ويمكن إجمال الرد عليهم في عدة ملاحظ هي :

الملحظ الأول :

أن أهل السنة والجماعة عندما بينوا الأصول التشريعية أوضحوا كيف تستنبط منها الأحكام، ومارسوا ذلك عملياً ، وأول ما يطلب من جماعة شكري أن يشرحوا هذه الأصول التي ابتدعوها ، ويبينوا كيف تستنبط منها الأحكام ، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، بل جاء عرض هذين الأصلين عاماً ومقتضباً .[1]

الملحظ الثاني :

تبين الآيات المتعلقة بالسموات والأرض والتي أوردها في معرض الاستدلال على كون السموات والأرض وما بينهما حجة ، أن هذه السموات والأرض في كمال صنعهما ودقة بنائهما لا بد لهما من بان وصانع ، وهذا ليس قاصراً على السموات والأرض ؛ بل يشمل كل المخلوقات ؛ ولذلك ساق الله في سورة البقرة مجموعة من المخلوقات كلها دالة على وجود الخالق ؛ إذ يقول عز وجل : « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دآبة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيت لقوم يعقلون »[2].

أيّ أن هذه المخلوقات كلها فيها «دلالات تدل على وحدانيته وقدرته»[3] فالله تعالى لم يقتصر في بيان وحدانيته على مجرد الإخبار بل قرن بذلك النظر والاعتبار فقال لنبيه عليه الصلاة والسلام : « قل انظروا ماذا في السموات والأرض »[4]. ويقول : « أو لم ينظروا في ملكوت

---

(١) ينظر ، محمد سرور ، الحكم بغير ما أنزل الله ص ١٢٤ .

(٢) سورة البقرة آية ١٦٤ .

(٣) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ج ٢ ص ٢٠١ .

(٤) سورة يونس آية ١٠١

السموات والأرض »[1] ويقول : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون »[2] أي «أولم ينظروا في ذلك نظر تفكر وتدبر»[3] ليتوصلوا بذلك إلى العلم بصفات الخالق، العليم، الحكيم، القادر، السميع، البصير، فإن التفكير والتدبر من سبل الإيمان وطرائق اليقين.

فالاستدلال بالسموات والأرض هو من قبيل الاستدلال بالأثر على المؤثر؛ إذ إن السموات والأرض مخلوقات غير عاقلة فلا يمكن أن تكون أصلاً يبنى عليه الدين، وحجة يستدل بها على السبيل.

الملحظ الثالث :

يثبت الله عز وجل أن خلق السماء والأرض إنما هو بالحق، وهذا ليس دليلاً على كونها حجة بل معنى ذلك أنهما لم تخلقا عبثاً وباطلاً «وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً»[4].

« أي هزلاً ولعباً أي ما خلقنا هما إلا لأمر صحيح وهو الدلالة على قدرتنا»[5].

ويقول عز وجل : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين » أي لم تخلق هذه المخلوقات عبثاً ولا باطلاً، بل إن لهما خالقاً حكيماً، خلقها لحكمٍ بالغة، فاللعب المنفي هنا هو ضد الحكمة[6].

الملحظ لرابع :

أن الفطرة الواردة في قوله عز وجل : « فطرة الله التي فطر الناس عليها»[7]

---

(١) سورة الأعراف آية ١٨٥.

(٢) سورة الذاريات آية ٢١.

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ج ٢ ص ٢٠٢.

(٤) سورة (ص) آية ٢٧.

(٥) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ج ١٥ ص ١٩١

(٦) ينظر المصدر نفسه ج ١١ ص ٢٧٦.

(٧) سورة الروم آية ٣٠

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولدعلى الفطرة »[1]

قد اختلف العلماء في معناها على عدة أقوال هي :

القول الأول : أن الفطرة هي الإسلام . وهذا القول « هو المعروف عند عامة السلف» [2]وبه قال أبو هريرة ، وابن شهاب [3]وغيرهما، وهو قول الإمام البخاري، واستدلوا بالأدلة الآتية :

١- قوله تعالى : «فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها»[4] يقول ابن حجر : «وأجمع أهل العلم بالتأويل على أن المراد بقوله تعالى (فطرة الله التي فطر الناس عليها)(٤) الإسلام »[5]

٢- قوله صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة »[6] إذ ورد في بعض روايات هذا الحديث « ما من مولود يولد إلا وهو على الملة» وفي رواية : « إلا على هذه الملة حتى يبين عنه لسانه»[7] .

٣- عن عياض بن حمار[8] رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال فيمايرويه عن ربه : « إني خلقت عبادي حنفاء كلهم فاجتالتهم الشياطين عن دينهم »[9] .

---

(١) سبق تخريجه ص ٣٥١ من هذا البحث .

(٢) ابن عبدالبر، التمهيد ج١٨ ص ٧٢ وينظر ابن تيمية، الدرء ج٨ ص ٣٦٧ وابن حجر، الفتح ج٣ ص ٢٤٨ .

(٣) هو محمد بن مسلم بن عبدالله بن شهاب الزهري أبو بكر ، أول من دون الحديث ، وأحد أكابر الحفاظ والفقهاء تابعي من أهل المدينة مات سنة ١٢٤هـ ، ينظر الأعلام ج ٧ ص ٩٧ .

(٤) سورة الروم آية ٣٠ .

(٥) فتح الباري ج ٣ ص ٢٤٨ .

(٦) سبق تخريجه ص ٣٥١ .

(٧) الحديث سبق تخريجه والرواية لمسلم عن أبي هريرة (٤/ ٢٠٤٨) .

(٨) عياض بن حمار بن ناجية بن عقال المجاشعي صحابي له أحاديث في صحيح مسلم وسنن أبي داود والترمذي ، سكن البصرة وروى عنه طائفة من التابعين . ينظر الإصابة ج ٧ ص ١٨٥ .

(٩) رواه مسلم (٤/ ٢١٩٧) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها : باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، وأحمد (٤/ ١٦٢) .

قال القرطبي : « وعلى هذا التأويل فيكون معنى الحديث : أن الطفل خلق سليماً من الكفر على الميثاق الذي أخذه الله على ذرية آدم حين أخرجهم من صلبه »[1].

وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة »[2] فقال : « الصواب أنها فطرة الله التي فطر الناس عليها ، وهي فطرة الإسلام ، وهي الفطرة التي فطرهم عليها يوم قال (ألست بربكم؟ قالوا بلى)[3]»[4]، وقال « ولا يلزم من كونهم مولودين على الفطرة ، أن يكونوا حين الولادة معتقدين للإسلام بالفعل ، فإن الله أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئاً ولكن سلامة القلب وقبوله وإرادته للحق الذي هو الإسلام بحيث لو ترك من غير مغير ما كان إلا مسلماً »[5].

ويقول : « والرسل صلى الله عليهم وسلم بعثوا لتقرير الفطرة وتكميلها لا لتغيير الفطرة وتحويلها »[6].

القول الثاني : « إن الفطرة هي البداءة التي ابتدأهم الله عليها ، أي على ما فطر الله عليه خلقه من أنه ابتدأهم للحياة والموت ، والسعادة والشقاء ، وإلى ما يصيرون إليه عند البلوغ »[7]. وبهذا القول قال به الإمام أحمد ثم رجع عنه إلى الأول ، وقال ابن عبدالبر[8]: « ما رسمه مالك في موطئه وذكر في باب القدر من الآثار يدل على أن مذهبه في ذلك نحو هذا »[9].

---

(١) الجامع في أحكام القرآن ج ١٤ ص ٢٥

(٢) سبق تخريجه ص ٣٥١ .

(٣) سورة الأعراف آية ١٧٢

(٤) الفتاوى ج ٤ ص ٢٤٥

(٥) الفتاوى ج ٤ ص ٢٤٧ ، وينظر ما نقله ابن حجر في الفتح ج ٣ ص ٢٤٩ عن الطيبي .

(٦) الفتاوى ج ١٠ ص ١٣٥ .

(٧) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ج ١٤ ص ٢٥

(٨) هو يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر النمري القرطبي المالكي أبو عمر من كبار الحفاظ والفقهاء ، مؤرخ أديب يقال له حافظ المغرب ، ولد بقرطبه سنة ٣٦٨هـ ورحل في الأندلس رحلات طويلة وولي قضاء بعض بلدانها توفي بشاطبة سنة ٤٦٣هـ له كتب شهيره منها التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد . ينظر سير أعلام النبلاء ج ١٨ ص ١٥٣ ، والأعلام ج ٨ ص ٢٤٠

(٩) المصدر نفسه ، والصفحة نفسها .

ومما يستدلون به قول الحق تبارك وتعالى : «كما بدأكم تعودون فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة»[1] .

القول الثالث : إنه ليس المراد بالآية والحديث عموم الناس ، وإنما المراد بالناس المؤمنون ، إذ لو فُطر الجميع على الإسلام لما كَفَرَ أحد ، وقد ثبت أن أقواماً خُلقوا للنار كما قال تعالى : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس »[2] .

القول الرابع : أن الفطرة هي الخلقة التي خُلق عليها المولود في المعرفة بربه ؛ فكأنه قال : كل مولود يولد على خلقة يعرف بها ربه ، إذا بلغ مبلغ المعرفة ، يريد خلْقَةً مخالفة لخلقَةِ البهائم التي لا تصلُ بخلقتها إلى معرفته . واحتجوا بالآيات التي وردت فيها كلمة فاطر بمعنى خالق كقوله : «الحمد لله فاطر السموات والأرض »[3] وقوله : «وما لي لا أعبد الذي فطرني »[4] .

والقول الأول أرجح لظهور أدلته وقوتها . وأياً ما كان الراجح من هذه الأقوال فإنها مجتمعة على أن الفطرة هي الأصل الذي يخرج به الإنسان إلى الحياة ، لا أنها مصدر لاعتقاداته ، فهي الأرضية القابلة للاعتقادات الصحيحة التي يأتيه خبرها عن طريق الكتب وعن طريق الرسل الذي أناط الله عز وجل بهم إقامة الحجة على الناس «لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل»[5] .

الملاحظة الخامسة :

أن الآيات التي ورد فيها امتنان الله على الإنسان بكمال خلقته ، وحسن صورته ، ونفخه فيه من روحه ، ليس فيها أي دليل على كون هذا الإنسان مصدراً وحجة ، والأصول هي : التي يستقي منها الإنسان عقائده وأحكام

---

(١) سورة الأعراف آية ٣٠ .

(٢) سورة الأعراف آية ١٧٩ ، ينظر القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ج ١٤ ص ٢٦ .

(٣) سورة فاطر آية ١ .

(٤) سورة يس آية ٢٢ .

(٥) سورة النساء آية ١٦٥ .

تصرفاته أفعاله . ولا يمكن أن يكون الانسان نفسه مصدراً تستنبط منه الأحكام؛ لخضوعه للأهواء ، والرغبات وغيرها من المؤثرات الداخلية والخارجية والذي يبدو من جعلهم الإنسان -بما فيه الفطرة - أصلا من الأصول الشرعية أنهم يريدون تعظيم العقل و: «من ينظر في رسائلهم بعين فاحصة يعلم أنهم يهتمون أشد الاهتمام بالمنطق والأدلة العقلية ، ويقدمونها على الكتاب والسنة»[1] .

(١) محمد سرور ، الحكم بغير ما أنزل الله ص ١٢٧ .